نظرية الشبكة

هل العالم آيل إلى صراع حضارات فعلاً؟..

«في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، كانت السّلالات هي الموجودات الحقيقية في رأي علماء الأنثروبولوجيا الطبيعيين خصوم «فرانز باوس» وذهب هؤلاء إلى أنّ السلالات هي جذر (ما افترضوا أنه الواقع) الفوارق الخاصّة بالقدرة العقلية والأخلاقية بين الجماعات، غير أنّ باوس وتلامذته رفضوا بشدّة فكر السلالات وطرحوا بياناً مغايراً عمّا هو واقع: المرونة البشرية والثقافات».

وحين يسوق مايكل كاريذرس هذا الكلام يُعقّبُ عليه بقوله:

بيد أنّني أطرح هنا أنطولوجيا أخرى، أنطولوجيا تبادلية تؤكد على «روح المعاشرة الاجتماعية» والتي أضَعُ لها الآن تعريفاً مؤقتاً بأنها القدرة على أداء السّلوك الاجتماعي المعقد، إنّ الكثير من الأنواع، خاصّة الرئيسات الاجتماعية لها صورتها الخاصّة بها من هذه القدرة، ولكن روح المعاشرة الاجتماعية، أو الروح الاجتماعية عند البشر تتجلّى واضحة، نظراً لأننا نشارك في أشكال الحياة شديدة التنوّع والتعقيد، وليس هدفي هنا إبدال فكرة الثقافة، مثلما حلّت الثقافة عن حقّ محلّ فكرة السّلالة المرذولة، بل هدفي تغيير مناط التأكيد، ومن ثمّ فإنني أؤكد، في المقابل، بأنّ كون الأفراد يعيشون في علاقات، وكذا الطابع التفاعلي للحياة الاجتماعية هي أمور أهمّ قليلاً وأكثر واقعية من تلك الأشياء الموسومة بالثقافة، إذ تذهب نظرية الثقافة إلى أنّ النّاس يفعلون ما يفعلون من أشياء بسبب ثقافتهم، ولكن تأسيساً على نظرية روح المعاشرة الاجتماعية، فإنّ

الناس يفعلون ما يفعلون من أشياء عن طريق استخدامهم الوسائل التي يمكن أن نصفها إذا شئنا ذلك بأنها أشياء ثقافية، وذلك من أجل بعضهم البعض، وبالتعاون مع بعضهم البعض وفيما يختصّ ببعضهم البعض[1].

إنّ مشكلة الفكر هنا تكمن في عدم القدرة على بناء اتّجاه واحد لحزمة من العناصر المتداخلة، وهي الإشكالية التي تبقي الهوة السحيقة بين الواقع ومحاولة الإمساك به..

فهل الاعتصاب البشري اعتصاب سلالي كما يرى خصوم فرانز باوس؟

أم هو اعتصاب ثقافي كما يرى فرانز باوس وتلاميذه؟ أمْ هو كما يرجح مايكل كاريذرس اعتصاب اجتماعي؟

وحين نتحدّث عن الاعتصاب فإننا سنتحدّث عن الصّراع أو على الأقلّ عن التميّز المؤدّي إلى هذا الصّراع.

والاعتصاب السّلالي كان ولاشك وراء الكثير من الحروب في العالم خاصّة عند ضمور الفكرة والإيديولوجيا..

بل إنّ التاريخ الحديث لا يخلو من ذلك، وقد انطلق «أدولف هتلر» من «سلاليته» ليصنف أجناس البشر، ثمّ ليعلن بناء على ذلك الحرب على الأجناس الدّونية..

أمّا الحروب الثقافية، فأهمّ مثال لها هو الحروب الصليبية.

وحين نتحدّث عن الصّراع المبني على الإعتصاب الاجتماعي، فإنّنا نجد أنفسنا نُوغل في شيء اسمه المصلحة، أكثر من أي شيء آخر.

(١) لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة؟ الثقافات البشرية: نشأتها وتنوّعها لمايكل كاريذرس. ت. شوقي جلال. ص٦٣ ـ ٦٤ ـ سلسلة عالم المعرفة الكويت رمضان ١٤١٨هـ. يناير/ كانون الثاني ١٩٩٨م.

فالخوف المشترك، والنفع المشترك اللذان يحدّدها الحيز المكاني المشترك (كمصير) قد يشكلان إطاراً ينطلق منه الفرد أو الجماعة في التّعامل مع الأحداث.

والولايات المتحدة الأمريكية تعدّ نموذجاً جيّداً لهذا كونها ملتقى لثقافات وأعراف عدّة، وحّدها المجال المكاني.. وأوجد منها شعباً له واقعه الاجتماعي..

إنّ قصور هذه النظريات الثلاث (السلالية - الثقافية والاجتماعية) يكمن في كونها تمثّل أجزاء لا كُلاًّ متكاملاً.. إنّها شبيهة بوصف العميان للفيل عن طريق اللمس، فالذي يلمس الخرطوم يصف الفيل بالأنبوب، والذي يلمس الأذن لا يخرج عن وصف الفيل بكونه مجرّد أذن، وهكذا..

غير أنّ المجتمع البشري ليس بهذه الصّورة البتّة، كما أنّ الفرد لا ينطلق فقط من زاوية واحدة ليرسم اتجاهاته.. وهنا يمكن الحديث عن تداخل المتعلّقات والرّوابط، وهو ما أسميته هنا «بالشبكة»..

وحين آخذ مواطناً أمريكياً عربياً مسلماً فإنني سأضع يدي على عدّة نقاط اعتصابية في شخصيته، ولكل نقطة تعلّق بحيّز خارجي.. فهناك متعلّق الدين الذي يجعل لهذا الفرد ولاءاته العقدية، ومتعلق الأمّة (الانتماء العرقي السلالي)، ومتعلّق المواطنة، ومتعلّق المصلحة، وهناك أيضاً متعلقات شخصية وأخرى ظرفيّة..

فلو قلنا لشخص يريد تفجير طائرة بأنّ أمّهُ موجودة في رحلة الساعة العاشرة تلك فإنه سيعزف عن فكرة التفجير (ظرفياً)، لكنّه لن يفعل ذلك لولا هذا المانع، ويمكن قياس الكثير من الأمور، فشخص له مصالح مادية واستثمارات كبرى في مركز التجارة العالمي لن يفكر في نسفه في حال ما إذا أراد استهداف بعض أبراج المدينة.

إنّ هذه المتعلّقات ظرفية، أو مصلحية، وهناك المتعلقات العامّة (الأصلية) التي ذكرناها (السلالة ـ الثقافة ـ المجتمع) وهي لا تنفكّ عن بعضها في الشخص الواحد، أو الفئة الواحدة.. لذلك لوحظ هذا الاضطراب في الموقف في مسلمي وعرب أمريكا عند وقوع اعتداء ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١م، فهل يتعاملون مع ما وقع كمسلمين وعرب ذاقت أمتهم الكثير من الظلم الأمريكي، خاصة فيما يتصل بصراع قضية (فلسطين) المحورية؟.. أم يتعاملون كإمريكيين مستهدفين هم أيضاً بمثل هذه الأعمال؟..

وقد مثّل كل ارتباط (أممي ثقافي) أو (وطني مكاني) جاذباً قوياً، أوصل بعضهم إلى الاضطراب والتناقض وعدم القدرة على اتخاذ موقف ثابت..

إنّ هذا الارتباط المتعدّد بحيزات مكانية أو ثقافية مختلفة، قد تكون متناقضة، هو الذي يجعل الشخص نقطة تقاطع لخيوط عدّة، وكلّ خيط مرتبط بشبكة من الأشخاص الآخرين.. فهناك خيط الثقافة المرتبط بالأمّة، وخيط السلالة المرتبط بالقوم، وخيط المجتمع المرتبط بالوسط، ثمّ هذا المجتمع في حدّ ذاته مشكلة، فهل المحرّك والدافع الاجتماعي للإنسان هو ذلك الحسّ المتراكم لسنوات أو عقود؟ أم ذاك الذي يتعلّق بالمكان حتى ولو كان ارتباط الإنسان به منذ دقائق فقط؟!.. وهل حين تعتدي أمريكا على العراق ينطلق العراقي الحاصل على الجنسية الأمريكية حديثاً، أو المقيم هناك، في استيعابه وتموقعه إزاء الحدث كعراقي عاش عقوداً في «المجتمع العراقي» أم كأمريكي يعيش الآن في «المجتمع الأمريكي»؟!.

الذين ينون على الجزئيات باعتبارها كلاً مطالبون بتتبّع تفرّعات هذه المعطيات وما تطرحه من أسئلة، غير أنّ النظرية الصحيحة هي تلك التي تبني على الواقع كما هو واقع..

لذلك فالإنسان قد يكون متجمّع عناصر عدّة متداخلة، منسجمة أو متناقضة، وهي في مجموعها تكوّن شخصيته، في شكل تآلفي بين العناصر، أو في شكل مضطرب (تعايشي)، ينعكس في شكل ولاءات مضطربة وقرارات غير ثابتة ونظرة متقلّبة تدلّ على انشطار في الشخصية.. إنّ فوكوياما حين يتحدّث عن أسامة بن لادن فإنّه يتساءل عن مدى تمثيله للمجتمع الإسلامي، أي، هل يمثل بن لادن ٩٠٪ مثلاً أم ٢٠٪ أم حالة شاذة في المجتمع الإسلامي.. فإذا كانت النسبة كبيرة كان المعنى أن بن لادن يمثّل صراع (أمّة) ضدّ عدوّها، وهو ما يعطي مشروع بن لادن صبغة (صراع الحضارات)، كما يتساءل فوكوياما عن مدى تمثيل أو انسجام بن لادن مع الإسلام، فإذا ما كان منسجماً معه بنسبة عليا فمعنى ذلك أن الإسلام دين صراع، وهو ما يصبّ أيضاً في صراع الحضارات، أمّا إذا كان بن لادن لا يمثّل من الإسلام كفكر إلا نسبة ضئيلة ٥٪ فمعناه احتمال أن يكون عنفه ناتجاً عن ٩٥٪ من الفكر الباقي الخارج عن الإسلام، وآنذاك لا يمكن اعتبار الصّراع دينياً أو حضارياً..

يقول فوكوياما: يشكّل الإسلام المنتظم الثقافي الوحيد الذي لا ينفكّ يُنتج بانتظام أشخاصاً مثل أسامة بن لادن أو الطالبان الذين يرفضون الحداثة، هذا الأمر يطرح السّؤال حول القدرة التمثيلية لأشخاص كهؤلاء في المجتمع الإسلامي بشكل عام، وحول ما إذا كان هذا الرّفض متأصّلاً في الإسلام.. ففي حال كان الرّافضون أكثر من مجرّد جناح متطرّف، عندها يكون هنتنغتون محقاً بأننا باتجاه صراع طويل جعلته خطيراً فضيلة التخلّف التكنولوجي لديهم[١].

إنّ تأمّل هذا الطرح يضعنا أمام ضحالة فكرية رهيبة، ذلك لأنّ الصّراع لا يتمحور حول «الحداثة» و«التخلّف التكنولوجي»..

---

(١) مقال «لقد ربح الغرب» لفوكوياما (سبق).

ثمّ إنّ اعتبار هنتنغتون مُحقاً إذا كان الرّافضون أكثر من جناح متطرّف خطأ فادح.

غير أننا قبل المناقشة نحتاج إلى طرح سؤال:

رافضون لأيّ شيء؟

إنّ بن لادن لم ينطلق في حربه ضدّ أمريكا من اعتبارها رمزاً للحداثة، بل لاعتبارات أخرى..

غير أنّه من الواجب أن يفهم الغرب والولايات المتحدة الأمريكية بالخصوص أنّ منطلق الضربة لا يدلّ بالضرورة على منتهاها.. والذين يستهدفون أمريكا قد ينطلقون رغم وحدة مستهدفهم من منطلقات عدّة.. فقد يستهدفها الفيتنامي للانتقام، والمظلوم كونها ظالمة، والفلسطيني كونها تدعّم إسرائيل ضدّه، والإسلامي كونها تحارب يوتوبياه وحلمه الذي يريد تجسيده في أيّ بقعة من الأرض، (الدولة الإسلامية).

لذلك فإنّ مئات الملايين من شعوب العالم يمثّلهم بن لادن (احتقاناً).. ضدّ أمريكا، وهُنَا يمكن ملاحظة أنّ الذين هلّلوا للضربة التي تلقتها أمريكا في ١١/ أيلول ـ سبتمبر ٢٠٠١م قد لا يكونون مع بن لادن، لكنّهم (ضدّ أمريكا)، و«ضدّ أمريكا» يمكن أن يمثّل علاقة ينتظم في خيطها كلّ ضحايا العنجهية الأمريكية، وهو الأمر الذي سيربط بن لادن بمئات الملايين من الأشخاص في العالم بغضّ النظر عن دياناتهم وقومياتهم وأوطانهم.. غير أنّ هناك شبكة أخرى غير شبكة (الانتقام) هذه تربط بن لادن بمئات الملايين قومياً.. لذلك تأخذ الحرب شكل صراع بين عربي وغير عربي، وشبكة أخرى ترسم الحرب في شكل مسلم وكافر، وهكذا..

غير أنّنا هنا نتحدّث عن المعنوي لا عن الحسّي، فالطيار الأمريكي المسلم قد يساهم في إلقاء قنابل الدمار على مسلمي أفغانستان وهم صائمون في شهر رمضان، رغم أنّ قلبه قد يكون معهم ضدّ أمريكا..

وهُنا وفي تداخل هذه العناصر في شخص واحد، يظهر جلياً أنّ الشخص في الأخير سيتحرّك في الاتجاه الذي يقتضيه طغيان عنصر على بقيّة العناصر.. فالمواطن العربي المسلم الأمريكي الذي يغلّب أمريكيته على إسلامه سيجد نفسه يبرّر الجرائم التي ارتكبتها أمريكا في حربها ضدّ أفغانستان مهما كانت بشاعتها.. تماماً كما صفق الكثير من الأمريكيين لقنبلتي هيروشيما وناجازاكي.. بينما إذا غلب عنصر انتمائه لأمته (الأصل) بقية العناصر، المكانية والمصلحية، فإنّه سيقف ضدّ أمريكا ولو نفسياً..

وهنا يُطرح السّؤال: لماذا اختلفت مواقف المسلمين والعرب ممّا حدث ومن كثير غيره من المواجهة للغرب؟..

لقد طالب بن لادن المسلمين بالوقوف إلى جانبه في حربه ضدّ أمريكا، غير أنّ الذي حدّد موقف هؤلاء المسلمين إزاء النداء أو إزاء الموقف عموماً هو (شبكة) المتعلّقات..

والمسلم الذي يجذبه من اليمين ولاؤه للإسلام، ومن اليسار واقعه المانع، ومن الأمام انتماؤه لضحايا أمريكا، ومن الخلف مصالحه الماديّة، وغير هذا من المتعلّقات التي تقيده وتربطه بمجموعات من الحيزات (حيز الأمة دينياً - حيز الأمة عرقياً - حيز المجتمع «الوطن - المكان» - حيز المصالح) لن يستطيع التحرّك في اتجاه متعلّق واحد، إذا كانت جاذبية المتعلقات الأخرى كبيرة، وفي الأخير سيغلّب الشخص أو الواقع المحيط به متعلّقاً (خيطاً) واحداً، وهو ما يضعف جميع الخيوط الأخرى فترتخي، أو تنقطع عن حيزاتها، ليأخذ الشخص مساره وفق المتعلق الغالب، لذلك يفقد الكثير من متخذي القرارات علاقاتهم مع الحيزات التي تضعف علاقاتهم بها لصالح المتعلق الغالب.

ومثال ذلك أنّ الشخص إذا اختار في الأخير مثلاً الانضمام إلى حيّز

ثقافته وولائه لأمّته، قد يفقد الجنسية الأمريكية، أما إذا وقف مع أمريكا فإنّه قد يُفتى بتكفيره لمشايعته الكفار، أو يعتبره خائباً، وبالتالي يُفكَ ارتباطه بحيِّز أمّته..

وطبعاً فعند فقدان مجموعة متعلقات بانقطاع جواذبها لصالح متعلق واحد أقوى، يصبح قرار الشّخص واضحاً، بل ربّما متطرّفاً في الوضوح، فهو مع الفئة أو الحيز الذي يربطه به المتعلّق الأقوى والذي اصبح وحيداً بانقطاع غيره.. لذلك نجد الفقراء يميلون إلى القيم والحديث عنها، وذلك بسبب أنّ القيم تقابل المادّة، وفي انقطاع علاقة الفقير بهذه المادة تتشكّل ثقافته ومنطلقاته من واقع الفقر كمتعلّق وحيد، لذلك يحاول أن يجعل من هذا المتعلّق نقطة قوة وحيّزاً مشرّفاً حين يصبغ عليه صبغة القيمة (القناعة والرّضى)..

وبقدر فقدان الشخص للجاذبية التي يتعرّض لها من طرف متعلق ما، بقدر ما يكون ميله وانحيازه إلى الجهة المقابلة، فإذا انقطع الحبل الذي يشدّه إلى الخلف كان اندفاعه إلى الأمام والعكس، وهكذا.. فالشيخ العجوز يفلسف القوة بمعنى (الحكمة) لانقطاع ارتباطه بقوّة الجسد، والشاب مفتول العضلات يفلسفها بالعنصر الغالب عنده، وهو «قوة العضلات»..

وبعض الجماعات المضطهدة في العالم الثالث كانت كثيراً ما تردّد أن عنفها ناتج عن عنف السُلطة، وهو المبرّر الذي كانت هذه السلطة لا تلتفت إليه لكون رجحان عنصر القوة والمصلحة عندها يجعلها لا تلتفت إلي عنصر المناقشة الفكرية والبحث في دوافع العنف ومسبباته، غير أنّ هذه الأنظمة العالمثالثية ذاتها كانت بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، تريد أن تثبت لأمريكا أن ما أصابها من عنف كان ردّة فعل على عنفها هي (أمريكا).. وبالتالي وجب البحث في أسباب العنف لأنّ القوة ليست

حلاً.. وقد وقع هذا التحوّل في الخطاب، بسبب أن عنصر القوة الذي كان متوفراً عند هذه الأنظمة في مواجهة مناوئيها الداخليين لم يَعُدْ كافياً اليوم أمام قوة أمريكا... تماماً كما أنّ صاحب الثلاثين سنة كثيراً ما يحسم خلافاته بعضلاته، لكن مع مرور السنين ووصوله إلى الستين، سيصبح يتحدّث عن قوّة الحكمة والعقل في حلّ المشاكل ومواجهة الأعداء..

إنّ كلّ توجهات ومواقف وحركات الأشخاص والمجموعات تأخذ الاتجاه والصبغة اللذان يحدّدهما العنصر الغالب أمام انقطاع العناصر المغلوبة في مجال المتعلقات والجواذب.. غير أنّ هذه الجواذب التي تفقد قوّتها قد لا تنقطع كليّة، بل تأخذ صفة «السلبية» لتصير غير مؤثّرة، فمثلاً شخص يتدافع فيه انتماؤه للدين بانتمائه للقوم.. وقد ينضمّ في الأخير لجيش الدّين ليحارب قومه، وذلك لا يعني أنّ قوميته زالت، فالعربي المسلم، كان يحارب مع محمّد ـ صلى الله عليه وسلم ـ العرب الكفار من قومه، دون أن يعني ذلك خروجه عن (العروبة).. إنّما يعني غلبة الولاء للدين على غيره من الولاءات الأخرى، ومنها الولاء للقوم..

وهُنا يمكن ملاحظة أن الشخص الذي يفقد جاذبية متعلقات عدّة لصالح طغيان متعلّق واحد، لا يعني أنّه تخلّص إلى الأبد من هذه المتعلقات المنقطعة أو «السّلبية» (الضامرة)، فقد يأتي ظرف آخر ويتحوّل ميزان القوة إلى أحد هذه المتعلقات الضامرة، فيتحوّل من متعلق سالب لا تأثير له على الشخص إلى متعلّق طاغٍ ووحيد يحكم حركته ويوجّهه.

إنّ فهم نظرية الشبكة سيجعلنا أكثر فهماً للواقع وأكثر قدرة على استشراف المستقبل، إنّ هناك دوائر انتماءات عدة تتقاطع في المجتمع العالمي، وقد يرتبط شخص مع آخر بتقاطعين بينما يرتبط مع شخص آخر بتقاطع واحد..

وحين نتكلّم عن الشبكة فإننا سنكون بين عدد غير محصور من

الخيوط والخطوط المتداخلة التي يصعب استيعابها بشكل دقيق وثابت، ذلك لأنّ علاقات النّاس كخلايا الجسم تتغير باستمرار، ومع كل ثانية هناك روابط تنفصم، وروابط أخرى تقوم..

غير أنّ «الجماعة» تبقى بالنّسبة لي، إفرازاً من إفرازات «التشابك»، وهي (أي الجماعة) غير قادرة على استيعاب كلّ متعلقات الفرد، لذلك يكون لهذا الفرد جماعات كثيرة ينتمي إليها، فهو من الناحية اللغوية ينتمي إلى جماعة (القوم)، ومن الناحية الدينية إلى جماعة (الأمّة)، ومن الناحية المادية ينتمي إلى جماعة (تربطه بها مصالح)، ومن الناحية السياسية، والرياضية، والثقافية، لذلك تبقى شبكة علاقات الفرد المفضية إلى جماعات عدّة أكبر من أن يستوعبها مكان أو زمان.. فبالنسبة للمكان هناك تجاوز لمعنى الوطنية، وللفرد المواطن انتماءاته الأممية التي تتجاوز حدود الوطن، كما قد تكون له انتماءاته المادية إلى مؤسسات أو شركات أجنبيّة، ومن الناحية الفكرية قد يكون منتمياً إلى جماعة إيديولوجية فكرية غير موجودة في وطنه، وهكذا، أما بالنسبة للزّمان فإنّ الحركات السلفية مثلاً تتجاوز الواقع لتعلن انتماءاتها لأناس وُجدوا في أزمانٍ غابرة، وهذا التحيّز المتجاوز للزّمن يترجم إلى أيّ حدّ هي ممتدّة «شبكة» المتعلّقات في المكان والزمان..

وتعرّف ماري دوجلاس الجماعة بأنّها الخبرة في وحدة اجتماعيّة متماسكة[١]، أمّا الشبكة فهي عندها القواعد التي تصل الشخص بالآخرين على أساس المصلحة الذاتية[٢]. وهذا الكلام فيه نظر، لأن الشبكة ليست مصلحية في كلّ الحالات، فنزلاء السّجن مثلاً يربطهم جامع واحد في كل العالم، وهو أنهم «مسجونون»، ويشكل ذلك شبكة،

(١) نظرية الثقافة ص ٤٦.

(٢) السابق.

Ocr-kandil.com

وهي هنا ليست مصلحيّة، والصّفة الاجتماعية لها بُعْدٌ واحد، هو «الشبكة»، أمّا الجماعات فهي إفراز منطقي للتشابك، وهذا مخالف لما قاله أصحاب كتاب نظرية الثقافة من أنّ للصفة الاجتماعية بعدين، هما الجماعات والشبكات.. ثمّ أنّ كلمة الشبكات توحي بأنّ هناك تعدّداً في هذا المجال، وذاك خطأ، فهناك شبكة واحدة تغطي العالم وتمتد في الماضي والمستقبل، إنّ «الأمة» جماعة وبالتالي فهي أحد المظاهر التي يفرزها التشابك، وللأمّة امتداداتها القديمة والمستقبلية، إذ أنها متواصلة، ثمّ أنّها متخيّلة، وهذا يذكرنا بما قاله عمانويل والرشتاين Wallerstein مدير مركز فرنسا لدراسة الاقتصادات في كتابه المشترك[1] «العرق، الأمة، الطبقة، هويات غامضة».

«Race, Nation, Class, Ambiguous identities» إذ يرى أن الأمم «متخيّلة» لأن أعضاء حتى أصغر الأمم لن يعرفوا أبداً الأعضاء الآخرين في أمّتهم، ولن يقابلوهم، أو حتى لن يسمعوا بهم، ورغم ذلك تعيش في عقل كلّ عضو منهم صورة صلتهم الحميمة[2].

إنّ الحديث عن الجماعة هنا هو الحديث عن شيء متخيّل في إطار جامع، غير أنّ هذا الجامع والذي هو حيز محدود، ليس مفصولاً عن حيزات أخرى، فلأفراده علاقات فردية مع أفراد أو حيزات أخرى، كما أن للحيز ذاته علاقته كحيز مع أفراد أو حيزات أخرى وهكذا..

حيز (جماعة) حيز آخر.

إن العلاقة (أ) علاقة حيز بحيز، أمّا العلاقة (ب) فهي علاقة أفراد في

(١) مع إيتني بالبار.

(٢) الكتاب المذكور ص (٦) وانظر مجلة «الجديد في عالم الكتب والمكتبات» عدد ١٢ شتاء ١٩٩٦ ص ٦٧.

حيز أوّل بأفراد في حيز ثان، وتبقي العلاقة (ج) تمثّل علاقة الفرد بحيز غير حيزه علاقة شخصية، إنّ تعدّد مناطات العلاقات يجعل الشبكة تغطّي كلّ مناحي الحياة وعناصرها الثقافية، والسياسية، والاقتصادية، والإثنية فـ (س) الروسي مرتبط بـ (ع) الروسي بالمواطنة، ومرتبط بـ (أ) الباكستاني في الأصل الجنسي، ومرتبط بشركة أمريكية ما اقتصادياً، ومرتبط بالأمة الإسلامية إسلامياً، وهكذا تتكوّن تشابكات كثيرة تصل بالأمر في الأخير إلى أن تكون هناك شبة واحدة لا شبكات، فلنفترض أن هناك شبكتين مثلاً، إحداهما (أ) والأخرى (ب)، وكلّ واحدة منهما متميزة عن الأخرى، إنّ علاقة واحدة (زواج، شراكة) لفرد واحد من الشبكة (أ) المفترضة تسليماً، مع فرد واحد من الشبكة (ب) سيجعل الشبكتين شبكة واحدة متّصلة عبر هذا الخيط الممتدّ بينهما.. ثمّ أنّ أي فرد (أ) له علاقة مع فرد آخر هو (ب) ولـ (ب) علاقات مع أربعة أشخاص آخرين، فإنّ (أ) في الأخير سيجد نفسه مرتبطاً بهؤلاء الأربعة فقط لأنه ارتبط بمن هو مرتبط بهم، وبذلك تمتدّ الشبكة لتغطي أشخاصاً لا نعرفهم أصلاً، ولم نرهم - ربما - البتّة.

لهذا السّبب نستطيع القول أنّ الشبكة لا تقوم على الإتفاق أو التواطؤ، لذلك يحدث الصّراع في إطارها، والشبكة الكبرى تجرّ الشبكات الصغرى في إطار الشبكة العامّة إلى اتجاهاتها، وتبقى هذه الشبكات الصّغرى غير قادرة على الانسحاب من الشبكة التي تلتفّ بها وتُفرض عليها، لذلك فالأفراد هم الذين يخلقون العلاقات والشبكات، لكنّ الشبكة هي التي تتحكّم في حركتهم فيما بعد..

فالمواطن العالمي اليوم يأتي إلى الدنيا محكوماً بانتمائه (غير الاختياري) إلى أمّة ما أو عرق ما، كما أنّه يأتي محكوماً بعلاقة بلده مع أمريكا، وهو لا يستطيع الفكاك من هذه العلاقة ما دام في بلده أو حاملاً جنسيتها.

لذلك تبوء محاولات الكثير من الذين يريدون قطع الشبكة وفصل مكوّناتها بالفشل، فالإنسان حرّ في قطع علاقة من ناحية لكنّه لا يستطيع جرّ الشبكة العامّة في الاتّجاه الذي يريد.

وتعدّ تجربة أفغانستان محاولة للخروج من الشبكة المكانية بإيجاد منطقة حرّة تقطع كلّ صلاتها بالآخر، وتتحرّر من جذبه وضغوطه.. غير أنّ التجربة لمْ تنجح، لأنّ الشبكة الكبرى لها ارتباطاتها ومصالحها في أفغانستان، لذلك تصرّ على أنّ الكلّ يجرّ الجزء، وأنّ العربة هي التي يجب أن تأخذ اتجاه الحصان لا العكس، ولم تنقطع صلة أفغانستان بأمريكا مثلاً، لذلك فالذي حدث هو أن أُزيل أفراد (طالبان) وجيء بأفراد لهم علاقات مع أمريكا، يُؤْمِنُون بالتواصل معها وبنظرية نظام «اتجاه التحرّك» في إطار الشّبكة الكبرى، ليحلّوا محلّ من سبق.. غير أنّ الشبكة هُنَا تُعدّ غير طبيعيّة، لأنّها خرجت إلى كونها خاضِعة لهيمنة جهة ما، فمثلاً يرتبط الفرد بقبيلته ارتباطاً طبيعياً، إذ أنّ القبيلة هي المساحة الطبيعية لامتداد الأسرة، غير أنّ ظلم القبيلة للفرد يجعل العلاقة غير طبيعية، وبالتالي غير مرغوب فيها لذلك يلجأ الفرد إلى محاولة الخروج منها والتمرّد عليها.. وبالنسبة للشّبكة فإنّ قصر اتجاهها العام على رغبة جهة مهيمنة واحدة (هي هنا الغرب أو أمريكا) سيولّد عقائد ناقمة قد تتحوّل إلى ردّات فعل ثوريّة القصد منها تحويل اتجاه الشبكة، أو الخروج من ضغطها..

وهنا نخلص إلى أنّ الجرّ الغربي والأمريكي خصوصاً للشبكة باتجاه نموذج ومراد معيّن يراد الوصول إليه لن يتمّ التسليم له كليّة، وحتى إذا استطاعت الشبكة في الأخير أن تجرّ الرّافضين في اتجاه لا يرضيهم، فإن فكرة «الرّفض» تبقى قائمة، وفكرة الرّفض هذه هي التي تبقى تفرز الجماعات الثائرة التي تغذي الصّراع وتعطيه بعده العنيف، لذلك فإنّ فكرة «أمريكا الطاغوت» أو «الشيطان الأكبر» لم يأتِ بها بن لادن، فهي موجودة في أدبيات دينيّة قائمة على تحريم الطغيان.. وبالتالي فليست

الجماعات هي التي تحدّد صفة «الطاغية» أو «الظالم»، الذي يحدّد ذلك هو «الشرائع» و«الأفكار»، وبانعدام الجماعة الرّافضة التي تسمّي الطاغية طاغية، تبقى الفكرة الناطقة بطغيانه موجودة، تنتظر من يعتنقها ليجهر بها..

هنا يمكن أن ندرج رأي فوكوياما وتساؤله حول ما إذا كان بن لادن وجماعته يمثلون أغلبيّة المسلمين أم يمثّلون الإسلام.. ويخلص إلى أنّهم قلّة، لذلك فهم لا يدخلون في مسمّى الصراع الحضاري..

إنّ معنى الصّراع هنا ليس محكوماً بمعطيات القلة أو الكثرة، ولا بنسب التّمثيل، ولا بالأشخاص حتى، بل فقط وفقط بالأفكار، بالنظريات، بالثقافات..

فالفكرة الرّافضة للطغيان قد تفقد جميع أنصارها بموتهم، أو تراجعهم، أو لجوئهم للمهادنة، لكنها لا تموت، ولا تتراجع ولا تهادن.. وتبقى تحاول عقداً بعد عقد، وقرناً بعد قرن، وهي طوال هذه العقود أو القرون قد لا تصل إلى النّصر، لكنّها تبقى «تصارع»، وهذا الصّراع المستمر هو ما يزعج الآخر، (إسرائيل مع الانتفاضة الفلسطينية مثلاً)، إنّ الصّراع هنا يعني التّصادم، وهو لا يتطلّب تكافؤ القوى، كما لا يستدعي حسماً نهائياً بالنّصر، وبإمكان جماعة صغيرة ذات فكرة ثائرة أن تبقي أكبر دولة على أعصابها لعقود.

إنّ الكثير من الذين حاولوا دراسة الجماعات المسلحة من الباحثين الغربيين، كانوا يبحثون عن خلفية هذه الجماعات في شيء هلامي هو «الإرهاب»، والإرهاب ليس مجالاً لبحث الظاهرة بقدر ما هو ردّة فعل (شتيمة)، كتلك التي نتلفّظ بها لإنسان آذاناً فنشبّهه «بالوحش» مثلاً، أو نقول له «يا جاهل»، وتبقى الخلفية التي كان من المفترض البحث فيها مغفلة، ويكبر الخطأ أكثر حين يلجأ المهيمنون (الغرب مثلاً) إلى التعبير عن

ثقافة الآخر ليس انطلاقاً من حقيقتها هي، ولكن من مجرّد النموذج الذي من المفترض أن تكون عليه حسب رأيهم، وهو ما يستدعي من بعض هؤلاء الغربيين القول أنّ «الإسلام دين التسامح لا الإرهاب»، وأكثرهم لا يعرف الإسلام ولا قرأ عنه، و«تسامح الإسلام» لا يعني الرّضى بطغيان الآخر، أو القبول بتعدّيه، وإسرائيل تسمّي الجماعات الجهادية الإسلامية بالإرهابيّة لأنّها تدافع عن حقّها، ورغم ذلك يبقى الإسلام في حاجة إلى قراءة بعيداً عن إخفاء نصفه الآخر الذي انطلق منه النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في تعامله مع الآخر بأن لا يقبل منه إلاّ أحد ثلاثة أمور (الإسلام، الجزية، أو الحرب)، وبقدر ما يستوعب الغرب الإسلام بقدر ما يكون هناك صواب في التعامل مع المسلمين..

وللشبكة حالتان «ثابتة»، و«متحرّكة».. والحالة الطبيعية هي الحالة الثابتة، وفيها ينتفي أيّ جرّ أو جذب أو شدّ للشبكة من أيّ طرف كان، وإذا قلنا ثابتة فهذا لا يعني أنّها جامدة، فخيوطها في هذه الحالة تمثّل شرايين حياتها، إنّها خيوط مفعمة بالحركة والوصل، تماماً كعروق الجسم، تؤمّن ارتباط الأشخاص والجماعات ببعضهم، ارتباطاً قائماً على عقليّة التفاعل مع الآخرين، لأنّ الإنسان اجتماعي بطبعه، ولأنّ الحياة تقتضي مثل هذا التبادل والارتباط..

إنّ حركة الخيوط هُنَا هي حركة شبيهة بالتيارات التي تمرّ في الشبكة الكهربائية، دون أن تتحرّك الشبكة أو تهتزّ..

غير أنّ الواقع اليوم غير هذا، فهناك شدّ للشبكة من طرف جهة ما كبرى مهيمنة وقوية، وهذا الشدّ هو شدّ «عام» تستجيب له أو تتعرّض له الشبكة كلّها، بينما هناك نوع آخر من الشدّ الجزئي لمكان ما في الشبكة، وهذا قد لا تحسّ به باقي الجهات والأطراف..

ففي إقليم ما، في منتصف الشبكة قد تلجأ جهة مَا إلى شدّ جزء من

الشبكة إليها، وهذا يلاحظ كثيراً في الصّراعات الإقليمية أو الوطنية المحلية، إذ يكون تأثير ما يحدث ضعيفاً أو غير محسوس خارج هذا الإقليم..

ولعلّ حركة الشبكة أو ثباتها يمكن رؤيته من خلال نظريتين مختلفتين إحداهما نظرية الصّراع القائمة على أنّ المصالح هي العناصر الأساسية للحياة الاجتماعية، هذه الحياة التي تقتضي دائماً استعمال الترغيب والترهيب، في إطار جوّ من العداء والتعارض، والتمايز والصّراع البنيوي، وهذه النّظرية تقترب من حال «حركة الشبكة وشدّها»، أمّا نظرية الإجماع فهي تقترب من ثبات الشبكة والذي يمثّل الحالة الطبيعية لها (الترابط بالتعايش)، وترى نظرية الإجماع هذه أنّ الحياة الاجتماعية تعتمد على التضامن والتعاون وأنّها تقتضي الالتزام..

وقد عاشت هاتان النظريتان متزاحمتين تريد كلّ منهما أن تكون المفسّر الوحيد للواقع الاجتماعي، إلى أن جاء «داهر ندورف» بنظريته التي ترى أنّ كلتا النظريتين (الصّراع والإجماع) تتعاملان مع مجموعة مختلفة من المسائل، وكلتاهما تستخدمان المفهومات نفسها، ولكن بطريقة معكوسة، مثلاً كلّ عنصر اجتماعي له وظيفة وعيب وظيفي «dysfunction» والإجماع والقسر يوجدان جنباً إلى جنب، والنظريات المختلفة تنظم العالم نفسه بطرق متباينة وفقاً لنوعية المشكلة التي نريد حلّها، وما نظرية الصّراع إلاّ طريقة للنظر إلى العالم، ولذلك فإنّ العالم قد يبدو مشرقاً وجميلاً عصر يوم الجمعة، ومعتماً وكئيباً صباح يوم الاثنين[1].

إنّ البعض قد يطرح هنا فكرة «النّسق المترابط بالقسر» «imperatively co-ordinated system» للتّعبير عن هيمنة جهة ما

(١) ص (٩٥) النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس لإيال كريب ـ ت: محمد حسين غلوم عالم المعرفة الكويت ـ ذو الحجة ١٤١٩هـ/ إبريل/ نيسان ١٩٩٩م.

على رسم العلاقات والترابطات أو قطعها في إطار الشبكة الكليّة، أو جزء منها وقد وقع بعض العلماء في أخطاء فادحة حين اعتبروا أنّ نظرية الإجماع يقوم الاستقرار والتعايش فيها على أنّ المعايير والقيم هي العناصر الأساسية للحياة الاجتماعية، بينما المصالح هي العناصر الأساسية لهذه الحياة في نظرية الصّراع..

والحقيقة أنّ الصّراع لا يقوم فقط على المصلحة، كما أنّ الإجماع لا يقوم فقط على القيم والمعايير..

إنّ الجهاد في الإسلام مثلاً حرب دينية داخلة في معنى الصّراع، لكنّ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن ينطلق في هذا من مصلحة له أو لأصحابه.. بل من أوامر الشّرع، ولذا فالصّراع هنا قيمي ينطلق أو يرتكز على المعايير، بينما القعود عنه قد يتأتى من اشتداد وطأة المصالح الماديّة على النّاس.. وفي إطار نظرية الشبكة رأينا كيف أنّ المصلحة تمثّل خيطاً يربط الفرد (أو الجماعة) إلى كيان، وتجذبه إلى اتجاه معيّن، في حين أنّ القيم قد تجذبه إلى غير ذاك الاتجاه، وفي الجهاد أو الحروب القيمية ينتصر جاذب القيمة والمعيار على جاذب المصلحة، بينما حينما ينتصر جاذب المصلحة يقعد الإنسان عن الجهاد، وهذا الذي عبّر عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم، وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربّصوا حتّى يأتي الله بأمره﴾[١].

إنّ الجهاد هنا وهو فعل قيمي، يقابل المصالح، والجهاد صراع، بينما المصالح قعود..

هنا في هذه النقطة تسقط نظريتا الصّراع والإجماع من حيث التبرير والتفسير بالقيمة أو بالمصلحة..

(١) التوبة آية ٢٤.

وتبقى الشبكة تتحرّك وتتجاذب ليس انطلاقاً من المصلحة فقط، ولا من القيمة فقط، بل في إطار المرحلتين اللتين تكلمنا عنهما في فصل آخر، وهما:

١ ـ صراع الثقافات والمادة (القيمة والمصلحة).

٢ ـ صراع الثقافات فيما بينها بعد سقوط المادة في المرحلة الأولى..

وحين نقول «سقوط المادة» الذي ستحققه الحرب الدائرة الآن بين الثقافات المختلفة والمادة، فإننا لا نعني أبداً أن يكون العالم دون (تكنولوجيا) أو اقتصاد، إنّما نقصد أن تكون المادة خادمة للثقافات في صراعها ضدّ بعضها (كما هي المرحلة التصفوية الثانية)، لا مشكّلة لجبهة خاصّة بذاتها في مواجهة الثقافات كما هو الأمر في المرحلة الأولى من الصّراع التصفوي..

إنّ حركة الشبكة في المرحلة الأولى تتسبّب فيها المصلحة من ناحية خندق المادة الذي يمثّله الغرب اليوم، كما تتسبب فيها القيمة كمنطلق صراعي للثقافات المختلفة التي ترى نفسها مهدّدة بالهجمة الشرسة للماديّة..

أمّا في المرحلة الثانية فإنّ الشبكة سيحكمها صراع راجع إلى «الدافع القيمي» بالدّرجة الأولى، وهذا لا يعني عدم وجود اهتزازات ثنائية صغيرة قائمة على المصلحة، بل يعني أنّ الصبغة العامّة للصّراع الأكبر الذي يغطي على غيره ويغمره هي صبغة «حرب الثقافات»، غير أنّ هذه الاهتزازات المادية المصلحية الثانوية سيتمّ استيعابها آنذاك في إطار الصبغة العامة للصّراع الثقافي، تماماً كما يتمّ اليوم استيعاب أي حرب أو مناوشات دينية بقوة الهيمنة المادية عبر قرارات دولية أو تدخّل للكبار المهيمنين..